وأيَّ شرفٍ أعظمُ من حراسةِ ثُغورِ الدّين؟

وصيةٌ في شرف العلم، وتعظيم الدليل،
والثبات على التوحيد والسُّنّة



بقلم

خالد التميمي

https://x.com/solyman24/status/2091869261438267499?s=46

وأيُّ شرفٍ أعظمُ من حراسةِ ثُغورِ الدِّين؟
وصيةٌ في شرف العلم، وتعظيم الدليل، والثبات على التوحيد والسُّنَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكمل لنا الدِّين، وأتمَّ علينا النعمة، وجعل في كل خلفٍ من أهل الإسلام من يقوم بحجته، ويذبُّ عن سنته، ويدعو إلى توحيده، ويهدي إلى صراطه المستقيم، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله محمد، المبعوث بالهدى ودين الحق، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:
فما أجلَّها من وصية، وما أعظمها من منزلة: أن يكون طالب العلم حارسًا لثغر التوحيد، وحارسًا لثغر السنة، وحارسًا للدليل، وحارسًا للعلم النافع، وحافظًا للحقوق، محسنًا إلى الخلق، متواصيًا بالحق، متواصيًا بالصبر.

وأيُّ شرفٍ في هذه الدنيا بعد شرف العبودية لله أعظم من أن يقيم الله عبدًا على ثغرٍ من ثغور دينه، يحفظ أصل التوحيد من أن تشوبه شوائب الشرك، ويحفظ السنة من أن تدنسها البدع، ويحفظ الدليل من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ويحمل العلم كما حمله أهله: ديانةً وأمانةً وعملاً ودعوةً وصبرًا؟

إن العلم في ميزان الوحي ليس زينةً للعقول، ولا سُلَّمًا إلى الرئاسة، ولا طريقًا إلى كثرة الأتباع؛ وإنما هو عبادة ومسؤولية وميثاق.

وقد جمع النبي ﷺ فضل الفقه في الدين والثبات على الحق في حديث واحد عظيم، عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ)). رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم (71)

فتأمل هذا الاقتران النبوي البديع ، فقهٌ في الدين، وقيامٌ بأمر الله، وثباتٌ عند المخالفة ، فليس العلم الحق معرفةً مجردة، بل معرفة تورث عبودية، وبصيرة تورث ثباتًا، وفقهًا يحمل صاحبه على أن يعرف الحق بدليله ثم يقوم به ولو كثرت الطرق المخالفة.

وأول تلك الثغور وأعظمها ثغر التوحيد:
فإنه حق الله على العبيد، وأصل دعوة الرسل، وأساس الملة، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: 36].
فمن حرس التوحيد فقد حرس أصل الدين، ومن علَّمه للناس فقد دلهم على أعظم حق، ومن حذَّر مما يناقضه أو ينقصه فقد نصح لله ولكتابه ولرسوله ولعباده. وليس حفظ التوحيد غلوًا ولا تشددًا، كما أن التهاون فيه ليس رفقًا؛ بل العدل أن يوضع كل شيء في مرتبته التي وضعه الله فيها، ولا شيء في الدين أعظم من حق الله سبحانه.

ثم ثغر السنة:
فإن السنة هي البيان النبوي للكتاب، وبها تعرف عبادة الله على مراده سبحانه، ولذلك قال الله عز وجل: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [الحشر: 7]، وقال سبحانه: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63].
وكان أئمة السلف يعلمون أن فساد الدين يبدأ حين يقدم على الوحي قول الرجال وأهوائهم ، ولهذا جاءت كلمة الإمام مالك رحمه الله التي صارت أصلًا في هذا الباب: [كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر] , يعني رسول الله ﷺ.

ثم ثغر الدليل :
وما أدق عبارة الشيخ وفقه الله حين جعل للدليل حارسًا؛ فإن كثيرًا من الانحراف لا يبدأ بإنكار النص، وإنما يبدأ بتحريف دلالته، أو انتزاعه من سياقه، أو تقديم الذوق والعقل المجرد والهوى الحزبي والمصلحة المتوهمة عليه.
وطالب العلم الرباني لا يحرس رأيه، ولا يحرس اسم شيخه، ولا يحرس جماعةً أو حزبًا؛ إنما يحرس الدليل. فإذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ خضعت له نفسه، وإذا ظهر له الحق رجع إليه، فإن الرجال يعرفون بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال.
ومن هنا كان شعار أئمة السنة التسليم للوحي ، حين قال الإمام الزهري رحمه الله: [من الله الرسالة، وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم], رواه البخاري تعليقًا في صحيحه.
وهذا من أشرف ما يتربى عليه طالب العلم ، أن يكون عبدًا للدليل لا أسيرًا للأشخاص؛ يحب العلماء ويعرف أقدارهم ويحفظ حقوقهم، لكنه يعلم أن العصمة للوحي، وأن كل أحد بعد رسول الله ﷺ يؤخذ من قوله ويرد.

ثم ثغر العلم النافع:
فإن العلم ليس بكثرة الرواية وحدها، وإنما العلم ما أورث خشيةً وبصيرةً وعملاً. قال الله تعالى:
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28].
فكلما ازداد العبد علمًا بالله وأسمائه وصفاته وأمره ونهيه، ازداد له خشيةً وتعظيمًا وانكسارًا. ومن هنا كان العلم الذي لا يحمل صاحبه على العمل والتواضع ومراقبة الله حجةً عليه لا له.

ثم تأتي الجملة التي تضبط هذه الثغور كلها وتمنع حارسها من أن يتحول من ناصر للحق إلى ناصر لنفسه:
[وحافظًا للحقوق، ومحسنًا التعامل مع الناس] ، وهنا يظهر كمال منهج أهل السنة...

فليس حفظ التوحيد إذنًا بالظلم، ولا نصرة السنة مبيحةً للبغي، ولا الرد على الخطأ مسوغًا لإهدار حقوق المخالف ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: 8].

فالعدل لا يتجزأ. ترد الباطل ولا تظلم صاحبه، وتبين الخطأ ولا تكذب على قائله، وتحذر من البدعة ولا تنسب إلى الرجل ما لم يقله، وتحفظ للسني حقه، وللمسلم حقه، وللإنسان ما أثبته الشرع له من حق ، وهذا هو الفرق بين الغيرة الشرعية والحمية النفسية ، الغيرة لله تقف حيث وقف الدليل، وأما الحمية للنفس فتجاوز العدل متى غضبت.

ثم ختم الشيخ وصيته بأصلين عظيمين ، التواصي بالحق والتواصي بالصبر؛ وهما اللذان أقسم الله أن النجاة من الخسران لا تتم إلا بهما، فقال سبحانه:
﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1-3].

فالحق بلا صبر قد يتركه صاحبه عند أول فتنة، والصبر بلا حق قد يكون جلدًا على الباطل؛ وإنما النجاة في اجتماعهما: تعرف الحق، وتعمل به، وتدعو إليه، وتصبر عليه ، ولهذا كان الثبات أعزَّ من مجرد المعرفة؛ فكم من إنسان عرف الحق ثم أضعفته الدنيا، أو أخافته الوحشة، أو استمالته الشهرة، أو أثقل عليه ثمن الثبات ، والمؤمن يسأل ربه دائمًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8].
وطالب العلم أحوج الناس إلى هذا الدعاء؛ لأنه كلما ارتفع موضعه اتسعت الفتنة به ومنه.

ومن أبلغ ما في هذه الوصية قول الشيخ: [ولا تمدن عينيك إلى غيره وإن زخرفه المزخرفون] ، ...
فكم أفسدت زخارف الدنيا من قلب! وكم بدأ طالب علم يريد وجه الله، ثم رأى لمعان الشهرة، وكثرة المتابعين، ومجالس المتصدرين، وثناء الناس، فانتقل قلبه من سؤال: ما الدليل؟ إلى سؤال: ماذا سيقول الناس؟

وهنا يكون الامتحان الحقيقي ...
فإن أشرف مقام لطالب العلم ليس أن يُعرف اسمه، وإنما أن يعرف الله صدقه؛ وليس أن تكثر مجالسه، وإنما أن يثبت قلبه؛ وليس أن ينتصر في كل خصومة، وإنما أن ينتصر الحق في نفسه أولًا.

فيا طالب العلم، إن أقامك الله على ثغر من ثغور دينه فلا تؤتَ السنة من قبلك...
احرس توحيدك قبل أن تحرس توحيد غيرك، واحرس السنة في عملك قبل أن تحرسها في مقالك، واحرس الدليل من هواك قبل أن تحرسه من تأويل خصمك، واحرس قلبك من الرياء والعجب وحب الظهور؛ فإن أخفى الثغور وأشدها خطرًا ثغر القلب.

ولا تستوحش من قلة السالكين إذا صح لك الطريق، ولا تغتر بكثرة الهالكين إذا بان لك الدليل، ولا تجعل رضا الخلق ميزانًا للحق؛ فإن الحق كان حقًّا قبل أن يعرفك الناس، وسيبقى حقًّا بعد أن ينسوا اسمك.

واعلم أن الثبات ليس قوةً ذاتية يملكها الإنسان متى شاء؛ بل هو توفيق من الله، ولذلك قال سبحانه لنبيه ﷺ: {وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [الإسراء: 74] ، فإذا كان سيد ولد آدم ﷺ قد امتن الله عليه بالتثبيت، فما أحوجنا إلى الافتقار إليه سبحانه، وسؤاله الهداية والسداد والثبات حتى الممات.

وهذه الوصية المباركة لفضيلة الشيخ سليمان الرحيلي وفقه الله تجمع لطالب العلم معالم الطريق في كلمات قليلة: توحيد يحرسه، وسنة يتبعها، ودليل يعظمه، وعلم يتعلمه وينشره، وعمل يصدقه، وحقوق يحفظها، وخلق يحسن به إلى الناس، وحق يتواصى به، وصبر يثبت عليه.

فمن جمعها فقد جمع أبوابًا عظيمة من الخير.
وصدق الله العظيم:
{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: 33].

نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من أهل التوحيد والسنة، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح والإخلاص في القول والعمل، وأن يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر، وأن يثبت قلوبنا على دينه حتى نلقاه، وأن يحفظ علماء السنة، ويجزي فضيلة الشيخ سليمان الرحيلي خير الجزاء على هذه الوصية الجامعة، وأن يزيده علمًا وهدًى وتوفيقًا وثباتًا، وأن يجعلنا وإياه ممن قال فيهم سبحانه:
{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [هود: 112].

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.